

في محكمة الجن

للدكتور زكي مبارك

فلم يبق إلا أن أكون من الموظفين !
أين أنا مما أريد ؟

أنا أريد النص على أن قلبي ساق إلى متاعب أخطر مما كنت
أعاني ، فقد قلني من معاداة الإنس إلى معاداة الجن ، ونعوذ بالله
من كيد الشياطين !

وخلاصة القصة أني تحدثت عن « جنّية » ساهرتها ليلة
بالإسكندرية مسامرة الحبيب للمحبوب ، وأنا أجهل أن حديثي
عنها ستكون له عقابيل ... فإذا وقع بعد ذلك الحديث ؟

أطفأت النور بالفرقة التي تطل على الصحراء ، لأستوحى
القمر والنجوم في هدوء وسكون ، ثم راعني أن أرى الفرقة
تضيء ، وأن أرى خلائق لم يكن لي يمثلها عهد ، فهمت :
أنوا دارى فقلت : مَـنُون أنتم ؟

فقالوا : الجن ، قلت : همّوا ماء

— محكمة !

— أية محكمة ؟

— محكمة الجن !

— وفي هذه الأنوار ؟

— هذه أنوار لا يراها حابر ، فلا عليك !

— وهذه الوجوه ؟

— هي وجوه لا يراها غيرك

— وماذا تريدون ؟

— نريد محاسبتك على ما وقع منك

— وماذا وقع مني ؟

— هل نسيت ما نشرت بمجلة الرسالة ؟

— عماذا ؟

— عن الجنّية المحبوبة !

— ذلك خيال في خيال

— ونحن نحاسب على الخيال ، لأنه سورة مصفّرة من

الحقيقة الواقعية ، فأنت محاسب على اقتراف الإثم بمفازة جنّية

هذراء .

— من حديثي بمجلة الرسالة صرفتم ما اقترفت ؟

مع الاعتراف بأن القلم في يد الكاتب نعمة لا يمانلها شيء
من تفاسيس الوجود ، فأنا كثير الضجر مما يجني على قلبي ، لأنه
يتيح الفرص لمن يسرم إبدائي ، ولأنه يجعلني دأعماً على بال
الناس ، ويأويح من يشغل به الناس !

زُرت مرة إحدى المدارس الثانوية فوجدت ناظرها رجلاً
مجهولاً من الدوائر الأدبية والاجتماعية ، مع أن المرء لا يصل
إلى مثل مركزه إلا بعد ظهور وبروز في الأدب وفي المجتمع ،
فقلت في نفسي : « هذا هو الرجل السميد . إن منصبه يضارع
منصب من الوجهة الرسمية ؛ وقد يكون راتبه أضخم من راتبي ،
لأنه قديم المهد بخدمة وزارة المعارف . ولكنه أسعد مني ، لأنه
بعيد من المجتمع ، ومجهول من الجرائد والمجلات ، فلا يتحدث عنه
متحدث ، ولا يتزید عليه قارىء لا يفهم أسرار البيان »

ثم قلت : « أين حظي من حظ هذا الزميل ؟ إن مقالتي
تؤخذ منها قصاصات لتقدّم إلى وزير المعارف ، فأنا طلي بالوزير
من يوم إلى يوم ، أو من أسبوع إلى أسبوع . ومعنى هذا أني
أقدم سريري قبل السؤال عما فيها من مجاهيل »

وحل من يقع اللوم ؟ يقع على وحدي ، فنحن أي وزير
أن يتعقب ما يصدر عن مساعديه من أفكار وآراء ، ومن واجبه
أن يناقشهم فيما يستوجب النقاش

والآفة الفظيعة أني مُكثِر ، وقبلنا يسلم الكثر من
المشار . يضاف إلى هذا أن قلبي يجول في شجون من
الأجاذيب تمس طوائف من الممانى الشوائك ، فأنا أعرض
نفسى لتاعب لن تنقضى إلا يوم أنوب من محبة القلم ، ولن أنوب !
هل أصدق كل الصدق فأذكر أني شعرت بدسمة تساور
جفوني يوم زرت ذلك الناظر السميد ؟

لقد تحزّنت وتوجعت ، لأنني عرفت أن القلم لا ينثني
في حيائي ، كما ينثني أمثال في الأمم التي يُعبد قراؤها باللايين ،

— لا يستطيع مخلوق أن يؤذيني ، إن حفظت الأدب
مع الله في الترفق بنفسى
— حرّر الجنية من حبك
— لن أحررها من حبى ، فما أَرْضَى بأن يضيع نصيبها من
شرف الوجود
— لا نفهم شيئاً مما تقول
— أنا أقول بأن الإنسان أفضل من الجن ، لأن الإنسان
مجاهدون والجن رقباء ، والمجاهد أفضل من الرقيب
— والجنية المخطوفة ؟
— لن تكون لكم زلو عقدم ألف محكمة
— وإن اغتصبناها منك ؟
— لن تقتصبوها منى ، بعد أن سمعت أشعارى ، وهى
أشعار نظمتها بدم القلب
— أطع محكمة الجن
— لن أطيع
— وإذا حكمتنا عليك ؟
— سيعيكم التنفيذ !
وفى هذه المعمة رزت الجنية وهى تصرخ : أنا الجانية على
نفسى ، إن كان من الجانية أن أخرج إلى الأنوار بعد طول
الفرار فى غياهب الظلمات
— ماذا تقولين يا حمقاء ؟
— معشوق إنسى ، يا سعادة الرئيس
— والإنس أفضل منا ، يا شقية ؟
— نعم ، لأن أعمالهم فى العلانية
— وأعمالنا ؟
— أعمالنا فى طيات الخفاء
— لست منا ولا نحن منك
— أنا من معشوقى ، ومعشوق منى ، فاذهبوا عني
— ونهزم أمام الناس
— كما ينهزمون حيناً أمام الجان ، والجروح قصاص

ثم انفضت محكمة الجن بدون تعنت يحوج إلى الاستماعة

— عرفنا ما اقترفت قبل أن تنشر حديثك
— وكيف ؟
— لأننا تراكم ولا نروننا
— وما الذى منع من عقد المحكمة قبل نشر الحديث ؟
— الإثم عندنا يحتاج إلى برهان مكتوب
— وحديثى هو البرهان ؟
— نعم ، ثم نعم !!
— أسمعون كلمة الحق ؟
— قد نسمع !
— يجب أن نسمعوا ، فاسمعوا . أنتم تغفون من الحياة
موقف المتفرجين ، والمتفرج يرى المثل ولا يراه المثل ، فالمثل
آمر والمتفرج مطيع ، أو هو كاتب والمتفرج قارئ
— أقول إن الإنسان أفضل من الجن
— هو ذلك ، وإلا فأين نصيبكم فى خدمة الآداب والفنون ؟
— نحن الذين أقننا عرش سليمان
— وأبن عرش سليمان ؟
— بقيت منه المعانى
— هى معان إنسية لا جنسية ، لأنها متصلة بالناس لا بالجان
— ونحن الذين ألهمنا شعراء الجاهلية
— وهم لهذا جهلاء !
— أنت تحاكم ، فما هذه الفطرسه العاتية ؟
— أنتم تحاكموننى ، يا جماعة الجن ، ولم يكن فيكم من
يتسم بشجاعتى ؟
— وما شجاعتك ؟
— أنتم تعرفون شجاعتى ، فما تنكرت ولا تثلثت كما
تنكرون وتثلثون ، ولا سمح ضميرى بأن أرى الناس ولا يروننى
لأنى أحب أن تكون أعمالى فى العلانية لا فى الخفاء
— والجنية التى سرقها منا ؟
— لم أسرقها منكم ، ولن أردّها إليكم
— أطع محكمة الجن
— وهل أطعت محكمة الإنسان حتى أطيع محكمة الجن ؟
— سنؤذيك إن تماديت فى العصيان

- بالحامين فمرفت أن الجن لا يزالون على الفطرة الأولية في إدراك الحقائق البدئية ، وعرفت أيضاً أنهم يخافون من الإنس ، وكان معروفًا أنهم يخيفون ولا يخافون
- ذهبت الأنوار المجلوبة بحضور الجن ، وعادت الغرفة إلى الضوء المرسل من القمر في لطف ، وبقيت الجنية بجانبى وهى لا تكاد تصدق أنها نجت من تعقب أولئك المهالين
- هل صرنا في أمان ؟
- أنت صرت في أمان
- وأنت ؟
- ألم تعلمى أنى أقيم فوق جبل من البارود ؟
- أخاف وأنا معك ؟
- أنا أخاف لأنك معى ، فقومك لن يسكتوا عنى ، وقد يستنصرون بإخوانهم فى الشام والعراق
- المروف عندنا أن شياطين الشام والمراق من أصدقاتك
- ومن هنا أخاف
- تخاف من أصدقاتك ؟
- ومن أخاف ؟ هل أخاف من أعدائى وأنا أملك البطش بهم حين أريد ؟
- وانتقل الحوار إلى شؤون متصلة بالجمال فسألتنى الجنية عما يستهوينى من جمالها فقلت :
- أنا أحب فيك هذا الصوت الناعم المبحوح ، وأشتهى أن تتكلمى فى كل وقت .. أشتهى أن تكون حياتك حديثاً فى حديث ، لا تسكتى ، فإ رأيت أندى على قلبى وروحى من بغامك الذى يشبه وسوسة الجيب عند اضطرام الكؤوس .
- تكلمى لأرى نعيم الفردوس ممثلاً فى نبرات من أعذب وأطيب من همسات الأمانى فى الصدر الحزين
- هذا الصوت يزلزل قلبي ، وأنا أسمعهم وإن اعتصمت بالصمت
- كيف ؟ كيف ؟
- هويتك الأصيلة هى هذا الصوت ، فأنت كالبلبل ، وهوية البلبل فى الخلق ، والله يزيد فى الخلق ما يشاء^(١)
- لم تجب عن سؤالى !
- (١) إشارة إلى الفزاة التى ورد فيها الخلق ، بالهاء بدلاً من الحاء
- قلت إن هويتك فى الصوت ، وأنت دائماً فى بالى ، فانا أسمعك فى كل وقت ، وإن غبت عنى
- إلى هذا الحد يفتنك صوتى ؟
- وإلى أبعد من جميع الحدود
- كنت تقول إنى أفتنك باللون
- متى ؟
- ليلةً بقنا بالإسكندرية ، هل نسيت !
- لونك يفتن ، لأنه ينطق ، وهو يتموج تموج النبرات العذاب . إن فى قدميك خطوطاً نواطق ، فى قدميك ، فى قدميك ، فاذا أقول فى الرمز الناطق وهو صدرك الجميل ؟
- زدنى ، زدنى
- زبدينى فتونا لأزيدك جنونا
- ماذا تريد منى بعد أن خاضت فيك قوى ؟
- أريد أن تتكلمى فى جميع اللحظات
- وأين أجد ما أقوله فى كل وقت ؟
- تقرئين على ما فى المكتبة من مؤلفات أدبية وعلمية ولغوية ، بالعربية والفرنسية والعبرية ، والأمم سهيل ، فإن محصول مكتبتى لا يزيد عن عشرة آلاف ، وسنمبها ورقة ورقة فى أقل من عشر سنين
- إلى هذا الحد تحببى ؟
- وإلى أبعد مما أحبّ المباشرة من الإنس والجن فى جميع الأزمان
- أنا أرتعد من الخوف
- ومن تخافين ؟
- أخاف منك ، فدعنى أخرج لألحق بقوى
- لن تترقبهم بعد اليوم ، ولن يكون لأحد غيرى عليك سلطان ، فليجمع الجن جموعهم ليلقوني فى ساحة القتال ، ولتتمردى ما شاء لك الحق والطيش ، فلن يكون لك فى غير هذا البيت مكان
- وتحمينى من طغيانك ؟
- إذا اعترفت علانية بأن سلطان الجلال أضعف من
- سلطان البيان
- نكى مبارك